

بين «عولس» لجويس وال«وديسه لهوميروس

يتحتم على من يريد أن يقف على حقيقة هذا الكتاب «عولس» أن يلم إلماماً تاماً بحياة المؤلف ونشأته وما كابده ، فإن أمرين ظاهرين لكل مطلع فى الوهلة الأولى ، الأمر الأول : رغبته فى تسجيل حياة العصر الحديث ، والأمر الثانى التجاوزه الى منهج المناجاة الباطنة « Monologue Interieure » ، وهذان الأمران نتيجة مباشرة لحياة جيمس جويس الشخصية ، أى أن فنه نشأ عن حياته ونبت فى أغوار نفسه ولذا كان الوقوف عليها بمثابة المفتاح لهذا الكتاب . ولا يمكن أبداً فى هذه الحالة بالذات أن يكون الكتاب مفتاحاً لحياة المؤلف كما نشاهده فى معظم كتب أناتول فرانس أو مارسيل بروست ، فإن هذين الكاتبين بالذات قد أفرغوا قسماً كبيراً من ترجمة حالهما فى كتبهما .

ويلاحظ فى كتاب جيمس جويس وحدة المنهج واختلاف الأساليب ، ولم يجرى هذا الاختلاف فى الأساليب مصادفة وإنما

جاء لإتخاذه طريقة فنية مبتكرة وهو إخضاع اللغة لموضوع الفصل الذى يكتبه ، ومثله فى ذلك مثل الموسيقار المؤلف Gompositour أو الذى يطلقون عليه فى اللغة العربية صفة الملحن ، فإن الملحن الممتاز هو الذى يجعل نغم الموسيقى مطابقاً لمعانى الألفاظ التى يراد التوقيع لخدمتها كما هو المشاهد فى أوبرات فاجنر ، وهذا هو سر نجاح ذلك المؤلف الموسيقى العظيم وكل من اتبع طريقته ، لأنه بينما يوجد الانسجام فى الموسيقى أصلاً فيجب إيجاد هذا الانسجام نفسه بين الألفاظ التى تنشد ويتغنى بها وبين مجموع أنغام الموسيقى نفسها ، فإن منظراً يمثل عاصفة هوجاء واضطراباً فى أنفس أشخاص المنظر لا تصحبه موسيقى ناعمة أو هادئة كالتى تصحب منظر غزل فى ضوء القمر ، ويمكن أيضاً التوضيح بالاستشهاد بموسيقى ديبوسى فى قطعة المرايا Mirours وقطعة حديقة تحت المطر من وضع تشايكوفسكى .

ولذا فإن جويس الذى ورث المواهب الموسيقية عن أمه وكان هو نفسه موسيقياً قد أضاف بفنه الى مواهبه هذا المظهر ، فيجعل لكل فرد من كتابته أسلوباً ينسجم والمعانى التى يعبر عنها ، ونضرب لذلك مثلاً الفصل الذى عقده لوصف مستشفى الولادة

والفصل الذى جعله للهوى العذرى ، والفصل الذى وصف فيه منظر تنفيذ حكم الإعدام وهكذا ، فإن هذه الفصول كلها وإن كانت مكتوبة بقلم واحد وقد تكون قد دبجت فى أوقات متقاربة وإن يكن نفس الكاتب واحداً ، إلا أن الأساليب مختلفة ، والاختلاف ظاهر أولاً فى اختيار الألفاظ وتنسيق جرسها والعناية بوقع أنغامها فى الأذن ، وثانياً فى تركيب الجمل ، وثالثاً فى طريقة الجلاء ذهنى الذى ينقله المؤلف الى القارئ على طريقته ، فيكون بمثابة مهندس الرى الذى يتصرف فى الماء بحسب حاجة الأرض وموسم الزراعة وغزارة الماء ومقدار المطلوب منه .

وبالجمله فإن جويس أثبت أن المؤلف فى حاجة الى مواهب كثيرة ليصل الى الدرجة الأولى فى تطبيق فنه وجعله موافقاً للأهداف التى يرمى إليها ، ومثل هذا المؤلف ينبغى له أن يتمتع بالحرية المطلقة ، ويجب عليه أن يكون على علم غزير باللغة بل باللغات ، ولذا فانت تشعر أحياناً أثناء قراءة فصول هذا الكتاب أن مؤلفه يسرك بفيض مواهبه وغزارة ألفاظه ويغمرك ويغرقك تحت وابل متتابع هطال من الكلمات المختارة للمعانى التى يريدتها ، فإنه ليس صائفاً وجوهرياً ومثالاً ومصوراً وشاعراً وحسب ، بل هو غنى

جداً فى كل المواد اللازمة ، لإتقان كل صنعة من هذه الصناعات ،
وغنى جداً بالأنوات اللازمة لإتقانها .

وقد صهر المؤلف كل تلك المواهب وكل تلك المواد فى بوتقة
واحدة ، وأضاف إليها روحه وعقله وعواطفه وألامه وتاريخ حياته
وحياة وطنه وأحداث عصره وأحاسيس الشعوب المختلفة التى
مازجها واختلط بها أثناء الحرب العالمية الأولى وقبل ذلك بعشر
سنوات ، ومؤثرات الأوساط المتباينة وأحدثت العصر وأخبار الرجال
والنساء العظماء والمطمورين من الجنسين ، صهر ذلك كله فى قالب
واحد وهو كتابه .

ويبدو للقارئ لأول وهلة صدق هذا الاستنتاج من الفصل
الذى عقده فى وصف جنازة دنجام ، وبلغ القمة فى المسرحية
المنطوية على عجائب الفن حتى أنها تفوق وصف السوق الكونية
التى نظمها جوته فى رواية فاوست .

ولم يكن من المستطاع لهذا المؤلف أن يغفل الدين والسياسة
والأخلاق وعلاقة الجنسين فى هذا المعرض الكونى ، ولم يكن من
المستطاع أيضاً أن يخضع للقوانين أو المقاييس العرفية والعادية ،
فإن له قانوناً خاصاً به وميزاناً ومقياساً يستلهمها ، كما أنه ألزم

نفسه بلوغ الذروة فى التعبير الصادق غاية الصدق والقوى غاية القوة حتى صار فنه خالداً ، ولا يمكن القول بأن هذا العمل جاء مصادفة أو بغير وعى من المؤلف كما يزعم بعض النقاد جهلاً ، فإن الوعى ملازم له فى كل لفظ وفى كل جملة ، حتى عندما يغفل الترقيم وعلامات الاستفهام والنقط والفواصل إنما فعل ذلك كله تصدأً لغاية معلومة .

وليس ينبى على أنه اختار مزيج الحوار الباطنى أو المناجاة الداخلة على أنه هو نفسه كان بغير وعى ، فهذا منتهى الخرق فى الرأى من الناقد الذى ادعى أن كتاب جيمس جويس يقرأ من أوله الى آخره أو من آخره الى أوله ، فتكون النتيجة واحدة فى زعم ذلك الناقد الدعى ، وهذا الرأى المنسوب الى ينج أحد أصحاب فرويد - وهم أدلر وأتباعه - خطأ فى عقلية ينج وطعن فى علمه ، لأن جيمس جويس ليس مريضاً ولم يكن كتابه وثيقة معروضة للفحص بوصفها إنتاج مريض ليستطيع المحلل النفسانى أن يبنى عليها عناصر تشخيصه ، ومجرد التفكير فى هذا الرأى يدل على مرض ينج نفسه، فإن كتاب جويس ليس وثيقة مرضية أو إنتاج رجل مريض يعالج بالتحليل النفسى الذى هو خرافة هذا العصر وأسطورته

وإحدى وسائل الاحتيان والنصب فيه ، بل هو وثيقة إنسانية وعمل
فنى باهر سليم وصاحبه أسلم كتاب أهل عصره ، بل وغيره من
العصور .

أما الجانب الذى وصفوه بأنه مخالف للأدب ، يقصدون أنه
فاحش ، فهذا الوصف مرئوس عليهم وهو صدق لنفحة إنجليزية
عتيقة موروثه من العصر الفكتورى السحيق البائد المنافق ، فقد
سبق لهؤلاء المنتطعين المرائين المتستريين وراء دعوى الفضيلة
الكاذبة، سواء فى بريطانيا أم فى الولايات المتحدة ، أن هاجموا
شاعريين عظيمين آخرين وذلك فى سنة ١٨٧٠ وما تلاها ، وهذان
الشاعران هما Swinburne سوينبرن وهويت مان اللذان نظما
دواوين أتلانتا وروز موند والملكة الأم وورق الحشيش وقد اتبع كل
منهما فى نظمه آراء المدرسة الشعرية المعاصرة له « البريرافايليت »
التي أسسها فى انجلترا روزيتى واختط فيها خطة جديدة فى
الشعر والتصوير ، ولم يكن سوينبرن مقلداً بل كان مبتكراً ، ولكن
صادف ابتكاره توافق الخواطر فى الطريقة ، ولا سيما فى ديوانه
« القصائد والأغاني » فإن فيه ثورة على الأفكار المكتسبة بالتقليد
والتي خضع لها المجتمع خضوعاً أعمى ، وزعم النقاد أنه ادعى

بالرغبة فى القضاء على الربوبية؛ ومحو ذكرى الألوهية ولا سيما فى قصيدته « أنا كتوريا » ، وأنه وصف الدين المسيحى بأنه جالب الأحزان والدموع الى الجنس البشرى ، وأنه فى قصيدة نشيد الثناء على الزهرة جمع بين التيار اللادىنى وبين الشهوات الفامضة المهتاجة ، وجعل الفرح بالحياة قرين الحرية فى الحب ، وامتدح إلهة العشق وجنون « سافو » و « فرانجلولتاً » و « هرما فرويد » ، وكلها قصائد تدل على تلبس العقل بالجنسيات ، ورغبة الشاعر فى التحرر من مركبات النقص وعقد النفس التى أصابته فى شبابه وذلك كله قبل الاختراع العقيم الذى ساقه فرويد وأتباعه للعالم .

ولكن هؤلاء النقاد الإنجليز المتفهبين نسوا أنه لم يكن عصر روزيتى وسوينبرن وحدهما بل كان أيضا عصر بودلير فى فرنسا وتيوفيل جوتييه وارتور ريمبو ، وقد نظموا دواوين لا عدد لها ، لا يعد تحرر سوينبرن فى جانبها شيئا خطيراً ، بل نسى الانجليز أنفسهم أن بيرون قد تحرر قبل هؤلاء بثلاثين عاماً وهجم بفنه الجديد وقصائده الرنانة على الحصون العتيقة والقلاع البالية ، وأصبحت فى زمنه انجلترا بحمى الفضيلة حتى أرغموه على الهجرة ، ومرجع هذا كله ضيق العقل البيوريتانى « نسبة الى الشيعة

المتشددة المتحرجة المتزمتة » .

ومصدر هذا كله النفاق السكسونى ، وثورة الأدب والفن عند بعض الكتاب والشعراء على الاندفاع المادى الذى سكن عقول الانجليز وأغرقهم فى بحر مظلم من المال والصناعات والحروب الاستعمارية وتقديس التقاليد ، فكانت ثورة الأدباء صرخة من الأعماق ضد هذه المطامع والمظالم والمفارقات فى الحياة الاجتماعية وسيادة بعض الطبقات القليلة على معظم الطبقات الأخرى ، وسيادة المظالم باسم العلم الحديث وهو علم مادى هدم المعتقدات وقضى على العواطف وخلق أسباباً جديدة للتفاوت بين البشر وبين الطبقات الانسانية الاجتماعية ، وأن ذلك العلم بكل قوته وأسلحته وأمواله المفتسبة وذلك النهم الذى لايشبع صاحبه والمطامع التى لا حد لها، لم تُغْنِ الانسان شيئاً ولم تُغْنِ الروح بل تركت الروح الإنسانية فى حالة قحط وظلماً وجذب بلغت غاية اليأس والقنوط ، فنظم جيمس تومسن ديوان « المدينة ذات الظلام المرعب » فأحدثت فى سنة ١٨٧٩ نوبياً مهولاً ، وأعقبها كتاب « هل الحياة جديرة بأن تعاش » بقلم و. هـ . ملك .

وكان فتز جيروالد قد فرغ من نظم رباعيات الخيام

بالانجليزية ، فلفت الأنظار اليه والى تلك المسائل الروحية المعنوية الأزلية التى عالجها الشرق من قديم .

فصار سوينبرن مركز الدائرة وهدف المنافقين واتخذه كثير من الكتاب السخفاء الذين لا شأن لهم وسيلة للدفاع عن الفضيلة ليشتبهوا على حسابه ، فكان رده القاطع الحاسم فى مجلة «هوتن» حيث قال الحجة الكبرى التى يعتمد عليها هؤلاء النقاد ، هى أن يسألك هل يجوز أن تقرأ أم لبنتها العذراء هذا الكتاب أو تلك القصيدة بصوت عال دون أن يعتربها أو يعتربها الخجل ؟ فإن أجبته سلباً ، فقد وقعت فى فريق المنبوذين أعداء الفضيلة وأنصار الرذيلة ، وهذه حيلة دنيئة من هؤلاء النقاد الدجالين يقصد منها الى تهديد الكتاب والشعراء بالأوهام والإرهاب والتخويف ليرغموا على العمل والإنتاج بقيود معينة وشروط خاضعة لرغبات هؤلاء النقاد ، وغايتها فى النهاية كبح جماح العقل البشرى وإخضاع الكتاب والشعراء لنُظْم الاستغلال المادى .

والمفاد من هذا العرض الوجيز لتلك المسألة أنها لم تثر فى عهد جويس وحده بل إنها نغمة قديمة دقوها على طنبور بال ودف مخروق ، ووقعوا بها على عود تمزقت أوتاره ، وصفقوا بأصناج

محطمة صماء قد تسمع ولكنها لا تطرب .

وزاد نصيب جويس من ذلك البلاء ، أنه إرلندى من أمة مغلوبة على أمرها ، وثائرة على ظالمها ، وأنه كاثوليكي مرتد وأنه فقير لا جاه له ، وليس حوله شرذمة من المملقين والأتباع وأنه هاجر من وطنه فى عنفوان شبابه وألف كتابه فى الغربة وعاش فى زمن تطاحنت فيه المبادئ والمذاهب ، وكاد القديم أن يلفظ آخر أنفاسه ، ولكن مازالت بعض الدول الظالمة متحكمة فى أقدار العالم ، متخذة الغدر والخداع والدسائس وسيلة وسلاحاً لها وعلى رأسها انجلترا العجوز البالية الفانية التى لا تريد أن تلقى بسلاحها المغلول من يديها المرتجفتين ، فتجمعت كل هذه المصائب على رأس جويس فى أوائل العقد الثالث من القرن العشرين ، ولكنه لم يبال بها وصمد لها وتغلب فى النهاية عليها ، وجاء حكم المحاكم الأمريكية فى سنة ١٩٢٢ قاطعاً لهذه الألسن ، وواضعاً حداً حاسماً للمؤامرة السوداء التى كانت غايتها حرمان جويس من ثمرات جهوده واستغلال كتابه تحت ستار مصادرته فى أقطار العالم بأيدي أشخاص اتخنوا قانون المصادرة وسيلة من ناحية ، وعبثوا بقوانين حرية النشر من ناحية أخرى ، سواً فى بريطانيا ومستعمراتها أم فى الولايات

ليس كتاب عولس قصة بالمعنى المعروف المتواطىء عليه ، لأنه ليس فيها مشكلة أو معضلة أو حيلة كالتى تتخذ عقدة للقصص يحلها المؤلف بالتدرج ، وليس فيها أعمال مادية وواقعات درامية كالتى تتخذ نسيجاً للقصة وهى نوع من الدوافع والحوافز التى تحرك الأشخاص Action ، وليس فيها غموض ولا خفاء ولا سر يراد اكتشافه ، كما يتخذ فى القصص الذى غايته كشف الجرائم أو رفع الستار عن أسرار حياة البطولة ، وليس فيها موضوع غرامى سداه العشق واحمته الهيام بين بطل وفتاة أحلامه ، يقصدان الى الزواج ويبحثان عن السعادة الموهومة، وهذا سر قول النقاد الجاهلين أن ليس لها أول يعرف أو آخر يوصف ، لأن هذا الكتاب بمثابة مجرى نهر الحياة ، الذى ليس له أول ولا آخر ، لأن نهر الحياة ليس كأنهار الدنيا التى لها منبع ومصب ، وإنما هو تيار جارف أبدي ، ليس فيه توقف ولا غرق ولا شرق ، ولا مد ولا جزر ، ولاتكاد تستبين فى نهر الحياة أشخاصاً لهم أدوار معينة أو أقسام مقسومة ، وقد يكفى أن تسمع الاسم أو ترى الوجه أو تقرأ التلميح فتستعرض بذهنك حياة رجل بأكملها بل حياة رجال، أو أمة ، وحتى

الشخصيات الممتازة فى الكتاب ، أمثال شخصية بلوم وزوجته ، وستيفن ديدالوس وبك موليجان ، وعشرات غيرهم ليس لهم أنوار معينة ولا أقسام مقسومة ، ولكن لهم دلالات على شخصياتهم وألوان تتكرر رؤيتها وعرضها على ألسنتهم وألسنة المتكلمين عنهم ، لأن قصد المؤلف هو إظهار الروح والنفس والعقل ، لا إظهار الشخصيات والأخلاق والطباع ، وإنما تنأت هذه الأشياء تبعاً للمقصد الأول الأسمى للمؤلف وخطته الموضوعية التى انطوت عليها نفسه ثم أخذ ينشرها تدريجاً .

وهذا دليل جديد على الفرق العظيم بين عولس لجويس وبين الأوديسة لهوميروس ، فإن أوديسة هوميروس قصة منظومة شعراً ولكن لها بداية ونهاية ، بدايتها انصراف بطلها يولييسيز من حرب طروادة ، ووسطها تيه هذا البطل البحار فى طريق عودته الى وطنه، وختامها بلوغه هذا الوطن ووصوله مع ابنه تليماك سالماً وفرحه بقاء زوجته بنلوب والانتقام من أعدائه . وفى هذه الملحمة واقعات وحوادث ومناظر تجثم على صدر القارئ، وتقبض على خناقه وتضيق أنفاسه حتى يصل الى نهايتها ، كأنها قصة جنائية غامضة يراد الوقوف على سرها ، أو سرد أسرار خطيرة يرفع الستار عنها

تدرجاً ، مثل جزيرة سيرسيه ومنظر هاديس ، وما وقع فيه الأب والابن من الأخطار ووسائل نجاتهما ، فضلاً عن الهدف الإنساني Interest Human الذى يتجلى فى الملحمة الإغريقية ، وهو بحث ابن شجاع عن أبيه ، ووفاء زوجة فاضلة لزوجها وبيتها ، ثم اتخاذ عولس من دهائه وفطنته أسلحة لمحاربة أعدائه والتغلب على ما يصادفه من المصاعب ، وحيلة الزوجة (تلك التى نقضت غزلها) لمطالبة الطامعين فى زواجها ومماطلتهم .

كل هذه العناصر القصصية التى استمر المؤلف الناظم فى سردها عشر سنوات تدل على أن ملحمة هومير قصة سافرة صيغت تبعاً لقواعد الفن القصصى، ولكن ليس هكذا عولس التى كتبها جويس ، ولم يكن مقلداً ولا سارقاً ولا ناسجاً على منوال هومير ، لأن الفرق الجوهرى بين كتابه وكتاب هومير ، أن حوادث كتاب هومير تتم فى عشر سنوات ، وحوادث كتاب جويس تتم فى ثمانى عشرة ساعة ، أى فى أقل من يوم واحد .

وحوادث الأوديسه تقع فى جزر لا عدد لها وشواطئ بحار وأدغال وعالم غير أرضى لا ندرى إن كان نعيماً أم جحيماً ، وهو هاديس ، أما موطن عولس لجويس فهو مدينة دبلن ، بعض

شوارعها وبعض مساكنها وشواطئها ، وحى واحد من أحيائها وهى مدينة عصرية ، وتاريخ يوم محدد بالساعة والشهر والفصل، وليس فيها استعانة بقوة خفية أو سرية أو سحرية ، كما هى الحال فى كتاب هومير، فقد كانت الأرواح والملائكة وبعض الأرباب عوناً له ولابنه ، وهذا باب لم يكن فى طاقة جويس أن يطرقه فى القرن العشرين فى بلاد تقدر المادة وتنكر الأديان وتجحد ما وراء الطبيعة ولا تسلم إلا بمظاهر الحياة الدنيا ولا تؤمن بالروح وحيرتها بين الخير والشر ، وتتخذ القوة وسيلة لهضم الحقوق ، وتتبع الأهواء وتعبد المال ، وتسترق الأفراد والجماعات ، فوجب على جيمس جويس أن تكون ملحمة مطابقة هذه العناصر والحقائق والمنازع والأغراض ليكون ابن دهره وكتابه كتاب زمانه .

وبينما كان هومير يتخذ من الأساطير أو الأخيلة أو الخرافات أشخاصاً يحركهم وينطقهم بما يشاء ، كان جويس مضطراً أن يحضر الى الوجود الأدبى أشخاصاً من المعاصرين المعروفين حتى بأسمائهم وألقابهم وأوصافهم وتاريخهم ، وأن يدمج بضعة أفراد فى شخص واحد ليكون علماً على حالة نفسية أو خلق شائع أو عيب وراثى أو رذيلة بغيضة ، وأن يضع جميع هؤلاء - وهم يعملون

بالعشرات - فى إطار متقن محبوبك الأطراف .

وإذن ماذا تكون تلك الملحمة ؟ الملحمة الجويسية تسجيل
هرقلى - أى بالغ القوة فى العمل والقصد والنفاز - للحياة الواقعية
فى العصر الحديث على صورة تمثل العصر وأهله بصفة نهائية ،
لاينقصها شىء ولا تحتاج الى تمام بعد الذى أراده المؤلف ، وهى
بصورة موضوعية (Objective) لا علاقة للمؤلف بها ، ومستقلة عن
تأثيره كل الاستقلال ، ولا يروى فيها شيئاً من أخباره ، ولا يصف
عنصراً من عناصر أخلاقه ، ولا يسخر مادتها لوصف حياته ، ولا
يفرض على نفسه أو على القراء فرضاً ليستمعوا الى أحزانه
وأفراحه ، كما فعل كتاب القرنين التاسع عشر والعشرين ماعدا قلة
متمايضة منهم أمثال زولا وبلزاك وفلوبير .

بدأ جويس يفكر فى كتابه فى سنة ١٩٠٦ وبدأ يكتبه فى سنة
١٩١٤ وانتهى منه فى سنة ١٩٢١ ، ولكنه مع ذلك لم يذكر فيه تلك
الحرب التى عاش أثناعها وقبلها وبعدها بعيداً عن وطنه ، وما ذلك
إلا خضوعاً لقانون الفن ومطابقة أدبه للواقع ، فإن كتابه جعل
لتسجيل وتخليد يوم الخميس ١٦ يونيو سنة ١٩٠٤ فى مدينة دبلن
من الساعة الثامنة صباحاً الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ،

ولم تكن حوادث هذا اليوم وحدها كافية للملا ٧٠٠ صفحة ، ولكن أضيف إليها ذكريات وواقعات سابقة وشخصيات معاصرة وأخبار وواقعات وأسفار وآراء وعواطف وتواريخ ونضال وكفاح وكلها مستخرجة من الحياة الواقعية التي توصف حيناً على ما هي عليه ، وحيناً تبلغ درجة التسامى ، ويحافظ المؤلف على استقلال كتابه استقلالاً مطلقاً فلا يتدخل فيه ولا يحول تياراته ولا يؤثر في أشخاصه ولا يندمج مع بعضهم حتى يصير عملاً قائماً بذاته .

ويزيد في قدر الكتاب أن مؤلفه عانى وضعه وهو يئن تحت أثقال لا يعرفها إلا من كابد أمثالها وقد أشرنا الى بعضها ، فلا ضرورة للرجوع إليها ، إنما نقول إن كل تلك المتاعب - دموع العين وعرق الجبين ودماء القلب - كانت كلها بمثابة أشواك الورد التي أعانت وساعدت على ازدهاره .

ولم يكن جويس في وقت من أوقات حياته من التاسعة التي أدرك فيها حقيقة الحياة كما أسلفنا الى الستين التي قضى فيها نحبه - عليل الجسم أو سقيم الروح أو مختل المشاعر أو مريضاً بأي داء عضوى عضال ، فيما عدا عينيه وأضراسه ، وهذه لا تخل توازن العقل ، ولم يعرف عنه من العيوب الخلقية شيء كما يعرف

عن كثير من الشعراء والمؤلفين أكثر من أنه كان يدخن ويتحدث على الطعام ، وقد تزوج مبكراً ، ويفنى ويرقص أغاني وطنه ورقص أهل عصره ، ويشرب على المائدة نوعاً من النبيذ الأبيض الخفيف الأثر ، ولم يكن منغمساً في رذيلة من الرذائل كالمخدرات أو المقامرة ، وإنما كان استمتاعه بتلك اللذات المباحة البريئة وإفراطه حيناً في الغناء أو التدخين من قبيل الترفيه والتسرية عن النفس ، وهذه أبواب للهرب الذهني تعدها الطبيعة للنوابغ لينجوا من الجنون أو الانتحار السريع أو البطيء أو الوقوع في مخالف الأمراض المزمنة ، كما كان مرحاً طروباً ميالاً للمجون ، وهذه بمثابة صمامات الأمان عند أمثاله ، كما كان المرحوم أحمد فارس الشدياق ، ولكن على مرح جويس وعبثه البريء في حياته الخاصة ، فإنك لاتجد أثراً من ذلك في كتابه ، فإنه الجد كل الجد ، والوقار والحزن المكتم ، والقضاء والقدر الجائمان على صدر الانسان ، والأحداث التي تتربص به ، والمجهول الذي يتهدده ، والأمر الواقع الذي يضطر للخضوع له ، فلم يتسرب من خلق جويس شعاع الى كتابه ، ولم تنشع نقطة من مزاجه الى عدله ، وهذه قدرة في الأخلاق تفوق بها على الكثرة الساحقة من الكتاب والشعراء وأهل الفنون أمثال

أسلافه بودلير وفرلين وبروست ورابليه وغيرهم .

سألوا لماذا اتخذ جويس شخصية ليوبولد بلوم بطلاً لكتابه ، مع أنه أشد الأبطال خيبة وأقل الرجال ذكورة وأضعف الناس نكاية وأكثرهم استسلاماً لإرادة زوجته المرنولة ماريون بلوم وهى امرأة ثقيلة الوزن ، ثقيلة الظل مظلمة الروح ، فارغة القلب والعقل ؟

قيل لأن بلوم يهودى ، واليهود رمز للارتحال والتنقل من حال الى حال والطمع فيما بين أيدي الناس والشح والمتاجرة بالنساء وتحليل الإباحية فى المجتمع والتحرر من قيود الفضيلة والارتواء فى أحضان سواها ، ولذا وقع اختيار جويس على هذا النفل ليكون بطلاً أى ليكون أكثر الناس ذكراً وكلاماً وواقعات فى الكتاب، لا لأنه يمثل اليهودى التائه أو اليهودى المستعمر أو الدساس أو الجاسوس أو الخائن ، بل لأنه يمثل العصر الحديث ، ولذا كانت شخصيته مزيجاً من شخصيات شتى ، ولم يراع جويس أحاسيس رجال ونساء من اليهود أعانوه وخدموه فى غربته ، مثل عزرا باوند وغيره، ولكن هؤلاء كانوا يهوداً متحررين من قيود ملتهم ، كما كان ليوبولد بلوم نفسه فلم يكن لا هو ولا أحد منهم متمسكاً بالعقيدة الإسرائيلية أو بشعائر الملة .

ولكن عشرات الأشخاص الذين حشدهم جويس فى كتابه ، كثير منهم يعرفون بأسمائهم ، وكثير منهم معروفون ، ويرمز إليهم بأسماء مصطنعة ، وكثير آخرون خلقهم جويس وأبدعهم وخلع عليهم ماينطبق على الأخلاق التى يريد أن يكونوا أعلاماً عليها .

ومعظم شخصيات الملحمة جمعهم جويس فى المسرحية ليكونوا بمثابة أشخاص فى استعراض ، فإن تلك المسرحية التى أشرنا إليها إشارة عابرة ، تقع حوادثها ويدور حوارها ليلاً فى نايث تون بدبلن من قبل نصف الليل الى الساعة الثانية صباحاً «وحدة الزمان والمكان والعمل والأشخاص» .

ومما يلفت النظر فيها ، وصف المناظر وحالة الأشخاص الناطقين والمتحركين بإرادة المؤلف ، وهو قسم مهم من التأليف بجانب الحوار ، وفى تلك المسرحية التى يعد إنجازها إعجازاً فنياً وأدبياً ، جمع جويس المسرات والرذائل والغباء والغفلة ، ورجال الشرطة والجواسيس والبلغاء والسكارى والسياسة ، وبعض العظماء والمشاهير والأرواح وملائكة الرحمة وشياطين العذاب والغيرة ، والديوثين والقوادين ، والمتسولين والمحاكم والمحلفين والموتى والأيامى واليتامى والذكريات المجسمة والمعاصرة الناطقة ، وعقوبة

المذنبين والاقترصاص منهم وتأييب الضمير ، والحقيقة والخيال ،
والشعر والفلسفة والتاريخ .

وبالجملة جعل من هذه البؤرة صورة مصغرة لمهازل الدنيا
ومآسيها ، فهي كوميديا إنسانية من نوع جديد ابتكره هذا الرجل
وصاغه وأبدعه فى مئة وستين صفحة ويقصر البيان عن الإلمام
ببيانها ، ولكن كل المواهب الفنية والأدبية قد آتت صاحبها على
نسق واحد ونظام واحد وإنتاج مدهش حتى أن قارئها لتعروه لذة
أثناء تلاوتها وأثناء إعادتها تحل محلها هزة طرب ودهشة عند
تذكرها مهما طال الزمن على التلاوة الأولى ، فهي عمل خالد ووقفة
فى تاريخ الفن تلفت الدهر إليها .

وأول ما يدهش القارئ خلق الجو الملائم للمسرحية أو إيجاد
اللون المحلى وهو تعبير ضئيل للإلمام بالفكرة ، فهناك ظلام
وأشخاص مرضى ، وإبهام وقمامات فى الطرق ، وأشباح ومقعدون
زمنى ، وأصوات رهيبية ، وأنات وهنات ، وصرخات وأشعة مظلمة ،
وضباب وموسيقى حزينة ، وصيحات البغايا ، وسعال المرضى ،
وعريضة السكرى ، وتدخل الشرطة ، وطلاب الطب وعلماء
الروحيات .

ويبدو بلوم ، وهو مركز الدائرة وقطب القصة التي تتضاعل
حيالها أعجب أشرطة السينما الناطقة والصامته وأغربها ، يبدو
بلوم جائساً خلال تلك البقعة النجسة وهو يترنح من الشراب ،
ويدركه شبح أبيه المتوفى (رودلف) ، فيعاتبه ويؤنبه على سوء
مسلكه ، ويخيل السكر لبلوم أنه يرى أشباحاً - أشباح جرتى إحدى
معشوقاته ، وزوجته وأباه وأمه ، وهو يفطن الى أن قدميه حملتاه
الى موطن المعصية ومقرها ، وتبدو له مسز برين (معشوقته
الأخرى) ، وتتحدث إليه طويلاً عن زوجته .

وقد اتخذ المؤلف طريقة لتغيير الشخصيات تبعاً لتغيير
الحوادث المسرحية وطروئها وهو تغيير الملابس ، وقد جعل جويس
نثر المسرحية وهو من أعلى ماكتب ممتزجاً بنوع جديد من الشعر
على طريقة الأغاني ، وجعل حديثاً ناطقاً على ألسنة الكلاب ، فإن
مثل هذه المواطن لا تخلو من الكلاب الضالة المسعورة والعقورة
والعضاضة والكلبة سواء أكانت من الحيوان أو من البشر ،
وأضاف الى الشرطة حراس الليل ، وهم رقباء الآداب العامة
وحفظة الأمن فى ذلك المكان .

وأول تغيير يطرأ على بلوم أنه يصير فون بلوم باشا ، وأظن

أن أحد اليهود نال هذا اللقب وأعدم بعد المحاكمة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ثم يتولى بلوم الدفاع عن نفسه بوصفه جندياً محارباً ، ثم توجه إليه بعض النساء تهمة الاعتداء عليهن بفعل فاضح ، فيسوقه الحراس والشرطة الى مكان المحاكمة ، ويهاجمه بوفواه أو بيور فواه ويهدم دفاعه من أساسه ، وتتهمه خادمته «ديسكول» وتؤدى شهادة إثبات ضده ، فيدافع عن نفسه وينبرى محام للمرافعة عنه ، فيذكر أنه مريض العقل والجسم وأنه غير مسئول بسبب جنسه وصناعته ، فتنتدب المحكمة طبيباً شرعياً لفحصه ، فيقدم تقريره ضده ، وتتعاقب النساء على اتهامه ، فيصدر حكم المحكمة بإعدامه ، ويوصف بأنه يهودا الأسخريوطى ، ويتقدم الشرطى رمبولد، وقد صار جلالاً لقطع رقبتة ، وتطلب المحكمة شاهد نفى ، فيظهر شبح بادى دنجام ، دفين اليوم ويقرر أن بلوم كان يשיع جنازته وأنه ليس كما زعم شهود الإثبات من مقترفى الجرائم بالديناميت أو متجراً بالرقيق الأبيض ، ويؤيد الشبح فى شهادته شخص حارس القبور الذى شاهد بلوم فى القرافة أو المقبرة عصر هذا النهار ، ثم تبدو «زو» وهى فى صورة ظبى أو ظبية وتغازله وتستدرجه ، ويظهر ولتر رالى عشيق الملكة

اليزابث ، وقد جلب معه البطاطس والطباق من أمريكا ، ويكون ظهور هذا الشخص بداية تبدل حظ بلوم ، فينتخب رئيساً لبلدية دبلن ويتحمس له الشعب ويعتبرونه منقذ الوطن ، بل مصلح العالم بل زعيم الانسانية ، ثم يتوجونه ملكاً ، فيطلق امرأته ويختار لنفسه وزيراً ، وينقلب عليه الشعب ، فيتملقهم ويرشوهم بالمال والذهب والهدايا ، فينشقون عليه ، ويصيرون أحزاباً ، وتحترق مدينة دبلن ، ويقتص بلوم من خصومه ، فيقتلهم ويوصف عهده بأنه العهد الفريوسى .

ويجن النساء حبابه حتى ينتحرن تحت أقدامه ، ثم ينقلب بلوم امرأة ويلد ثمانية أولاد ذكور ، ويعينون فى أعلى المناصب ، ثم يأتى بالمعجزات ويصير نبي دهره ورسول عصره وتصطنع له الأنساب حتى يصلوا به الى الأنبياء الأقدمين ، ثم ينتهى حلم حياته وتستدرجه « زو » (الغزال أو الظبى) الى غرفة الموسيقى ، ثم يظهر المسيح الدجال ، وتنتهى الدنيا ، ويأتى النبى اليجاه Elizeh ويتكلم ويتلوه فيراج ، ويصف نفسه بأنه الكاشف عن أسرار الرهبان والناشر لفضائحهم والمنقذ للعدارى من كنيسة روما ، ثم تتكلم الماديات بعد الأشباح ، فتتطق المروحة ، وتظهر بلا كوهين زعيمة

البغاء فى عصرها ولها حوافر فرس أو حمار ، ثم تتقلب رجلا وتتخذ اسم « بلو » وتغير ثيابها ، وتظهر بمظهر الوحشية فى الطعام والشراب والكلام ، فينقلب بلوم امرأة ويزحف على بطنه ، ويبكى ويفر من بين يديها ، وهى أى بلا كوهين التى صارت « بلو » تحتم أن تضع على ظهره سرجاً أو بردعة لتركبه، ويرى بلوم فى تجسده الجديد بصفته امرأة سائر معاصيه السالفة ومعايب أخلاقه.

وتبدو كل من « زو » و« كتى » و« فلرى » خاضعات مطيعات لبلو » وهذا القسم من المسرحية الذى دعى بعض النقاد الى تشبيه هذه الفئة من النساء فى بيتهن فى جزيرة سيرسيه ، ولو أن سيرسيه الأصيله لم تأمر رجالها الذين سخطتهم حلايف أن يخضعوا لمعصية سلوم وعمورة ، كما فعلت بلاكوهين بعد أن صارت رجلا ، ثم يرى بلوم ماضيه الكريه مع النساء ، وهذا نوع من العذاب ^(١) ينوقه عن يد « بلا » التى تتقاضاه ثمن الذنوب فى

(١) هذه الفكرة قد انتحلها كتاب الفلسفة الوجودية فى سنة ١٩٤٥ فى كتبهم

وقصصهم ولا سيما مسرحية « الجدار » .

شبابه ، وهو عذاب أليم ، ومايزال بلو « الرجل المتقمص » يعذب بلوم حتى يقتله فتذهب روحه الى كوكب آخر غير الأرض ، فتلتقاه بنات الغاب « نمف » ، وتطن في أذانه أصوات النساء من بيت بلا كوهين وتظهر أشباحهن ثم يدخل عليه « لينش » وقد تحول بلوم في تلك الحياة الآخرة ديوثاً لبويلن عشيق امرأته ماريون بلوم .

ثم يتلو منظر لم يسبق له مثيل في أى أدب عالمى مستور أو مكشوف إلا فيما يلمحه القارئ فيما كتبه بيير لويس تقليداً للشعر الإغريقى القديم ، ولا سيما أدب سافو ، ولم يبلغ الانحطاط الخلقى فى الجسد والروح ما بلغه من ليوبولد بلوم ، ولم يبلغ كاتب من النثر والشعر ما بلغه جيمس جويس ، ولكن قدرة الكاتب الناثر ، وجمال التعبير يتغلبان على ثورة القارئ وهذا نادر ، وقد يكون جيمس جويس قد انفرد به دون كتاب العالم ، ويكون القارئ قد وصل الى حالة من السكر الحلال تنسيه كل اعتبار سوى الإعجاب بهذا الجبار الذى أوتى إعجازاً وقدرة فى البلاغة خارقة ، وهذا فى نظرنا ما حدا القاضى الأمريكى جون ولزى الذى أصدر حكمه فى عام ١٩٣٣ بأن ماورد فى الكتاب من الخواطر لا يؤثر فى أخلاق الشخص بل يزيده تقديراً للأدب والفن فتحدث معركة طاحنة بين

الإعجاب بالكاتب وبين النفور من بعض ماكتب ، وهو نفور منشأه
الدهشة والذعر الروحي وينتهي الأمر بزوال الملامة وبقاء الإعجاب ،
ولذا فإن النقاد الكاشحين يعذرون إذا هو لم يتحملوا بلاء تلك
المعركة ، وتوهموا جمهور القراء الذين لا يتحملونها لأنها جرعة قوية
من الدواء الذى يمازجه السم الزعاف وأثره يتبع بنية القارئ وقوة
تحمله ومناعته ومقاومته .

نرجع الى المسألة الأولى وهى أن هذا الكتاب لم يجعل لكل
قارئ وقارئة ، وليس مقررأ للمطالعة أو الدرس لتلاميذ المدارس أو
فتيات التطريز أو التدبير المنزلى، وانما هو موضوع لفحول القراء
لإتمام تعليمهم واطلاعهم على نواح من الآداب لم يطلعوا عليها ،
كما كانت بعض أوبرات فاجنر مسابقة بين فطاحل الموسيقى ، يأتى
كل منهم فيها بالمعجب والمطرب .

ولذا فإن قراء من هذا القبيل الذين تشبه أذهانهم معدة
النعامة تهضم الصخر والحديد وتاكل الحجر النارى والفلولاذ
المحمى وتستسيغها أمثال أرنولد بنيت وهـ . جـ . ولز وأزدا باوند
وسيموندى وهم نورو الأقدار الحقة فى أواخر القرن التاسع عشر
وأوائل القرن العشرين ، وعلى طرازهم مارسيل بروست وأندريه

جيد وتوماس مان فلم تأخذهم رعدة الحياء ولا نعرة الدفاع عن
الفضيلة ، لأن للفضيلة أسلوباً بل أساليب أخرى غير أسلوب الأدب
والفن .

وفى نظرنا أن كل أدب عال ، يغذى الروح ويرفع العقل
ويفسح فى آفاق الذهن ، وهذا الكتاب من الأدب العالى إن لم يكن
أعلاه .

ولسنا بحاجة لأن نقول فى مجال الدفاع عنه « لا حياء فى
العلم ولا حياء فى الدين ولا حياء فى الأدب والفن » ، ولاسيما أن
كبار الكتاب القدامى من العرب لم يتبرقعوا ولم يتقنعوا ولم يتشبهوا
بالنساء عند الكتابة ، والأمثال حاضرة فى نثر الجاحظ ، وفى كتاب
الأغانى وفى شعر أبى نواس وابن الرومى ، وقد حذف المحدثون
قصيدة « لم ينصف الناس ضبه » من ديوان المتنبى ، وهذا ليس
من حقهم ، ثم إن الحذف لم يمنعه من أنه نظمها وأنشدها ورواها
عنه الرواة ، كذلك الأسفار المحنوفة من التوراة مطبوعة على حدة ،
يقرأها كل من يبذل فى ثمنها دراهم معدودة .

وقد تمكن المنافقون والمتفيهقون من القبض على أوسكار وايلد
وحاكموه باختياره ، لأن فرصة الفرار كانت سانحة له ولكنه أبى أن

يفر من مواجهة القضاء الإنجليزي ، وهو غريب عنه بجنسه
الاييرلندى وعقيدته الكاثوليكية ، ثم إن عمله لا يقل عن عمل سقراط
إذ عرضوا عليه الهرب وأعدوا له وسائله فأبى ، ولا فرق بين الحكم
الظالم الذى صدر فى أثينا قبل المسيح على الفيلسوف الحر الذى
اتهموه بإفساد عقول الشباب ، وبين الحكم الذى صدر فى لندن بعد
المسيح بتسعة عشر قرناً ، وقد حاسبوا الكاتب على فعل نسبوه اليه
ولم يحاسبوه على ما كتب .

وإن البدن ليقشعر من العقوبة التى وقعت لأوسكار وايلد
وكانت سبباً فى القضاء على حياته ، ويقشعر مرة ثانية إذا فكر
فيما كان يصيب جيمس جويس لو أن الأقدار القاسية ألفت به فى
برائث هؤلاء المتعصبين الطفافة القساة الغلاظ ، ولكن الدرس كان
حاضراً فى ذهنه ، فقد فر من بلادهم وبلاد بلادهم وبلاد
بلادهم ، وكان بمنأى عنهم ، فلا تمتد اليه يدهم أبداً مهما طالت ،
ولا يحيق به مكرهم مهما كان سيئاً ، كان الدرس حاضراً فى ذهنه
وكان جويس عاقلاً حنوياً فاعتظ بما حدث لغيره ، فهرب مبكراً ،
واتخذ وطناً غير وطنهم وأرضاً غير أرضهم ، وتمكن أن يقول
مايشاء وفوق مايشاء ، فليندب العاجزون عن الهجرة حظوظهم .

لو ظفر الطغاة بجيمس جويس حياً لشووه شيئاً على السفود،
ولسلخوا جلده كما سلخ المتعصبون جلود الشهداء ، دع عنك
الصلب وتقطيع الأوصال والإحراق وتذرية الرماد فى الرياح باسم
الفضيلة والدين والدفاع عن آداب المجتمع .

إن هذا الكاتب الكبير سجل على ورق مساوئ العصر
الحديث ، ورد الى القوم بضاعتهم ، ليروا بأنفسهم مقدار الكراهية
، لفثيان والصغار التى تصيبهم عند رؤيتها بل رؤية صورتها ، كمن
يربط القاتل الى جثة المقتول ويكتفى بهذا العقاب عن القصاص ،
ربط جويس معاصى العصر فى أعناق أبناء العصر فشموا
رائحتها، وذاقوا مرارتها وتعذبوا بالنظر إليها ، فثاروا على الكاتب،
وهو لم يفعل شيئاً أكثر من أن قال لهم : هذه أعمالكم وأقوالكم
وأداؤكم . فأسدى اليهم جميلاً ولكنهم لم يبلغوا الرشد العقلى
ليقدروا هذا الجميل الذى أسدى ، ولو شاء جويس أن يبذل جهوده
وأدبه وفنه فى كتاب فى الوعظ والإرشاد والدعوة السافرة للفضيلة
لألهوه وعبدوه ، ولكن الذى يؤله ويعبد أفراد قلائل ، هم الذين
احترفوا القراماة والحكم على الكتب وهم يعلمون أن الوعظ والإرشاد
فى هذا الزمن يولد ميتاً ، ولكن جويس اختار ما يصلح للزمن وينفع

الناس ويرقى الأذهان ويخدم الخاصة ، ولم يكتب للعامّة والدمماء
والسواد الأعظم ، فإنهم لا يفهمونه ولا يعون أدبه ولا يقدرونه، ولم
يكن هذا الاختيار كله من صنع جويس ، بل فيه نصيب دفعته اليه
الوراثة والوطن والجنس واللغة والمواهب وظروف الحياة وسير
الحوادث وهذه كلها عناصر أصيلة فى تكوين الشخصية .

وهذا القسم الأخير أورده فى المسرحية عند استحضار شبح
والده وذكر وفاة أمه بالسرطان ووصف موتها وآلامها ، وحياة
الطلاب بباريس ، وقد عاش بينهم رداً من الزمن ، وحياة الطلاب
ولا سيما طلاب الطب فى كارتية لاتان ، وكانت فترة من أسوأ
فترات حياته وأسودها ، حياة تركت فى نفسه جرحاً لا يلتئم ،
وأذكرتنا بقول سترن وهو ينظر الى سجين فى الباستيل « رأيت
الحديد يخترق روحه » .

ويمزج جويس تلك الذكريات بندم الابن على عصيان إرادة
الأم ورفض توسلها إذ طلبت اليه وهى فى حشجة الموت أن يركع
بجانبيها ويصلى لروحها ، وفى وسط هذه المعمعة يتكلم أصحاب
التيجان ، ويعود « كار » الشرطى البغيض ويتجلى بجهله وسوء
فهمه ، وتحترق دبلين حريقاً ثانياً كما حرقت رومة أو قرطاجنة كأن

فلب المؤلف، لا يرتاح وباله لا يهدأ إلا إذا رأى النار تلتهم الظلم والظالم والمظلوم . ويعتدى « كار » رجل الشرطة على « ستيفن ديدالوس » بالطعن واللكم ليسكت لسانه ويخنق حرته ويقتل فكره ، وهو رمز مفهوم مادام بين ذى سلطان انجليزى وشخصية من شعب مظلوم ، أو مغلوب على أمره .

وقد رأينا فى موضع آخر كيف تنهى هذه المسرحية بنهاية الهذيان الفكرى الذى أصاب ليوبولد بلوم نتيجة الخمر ، حتى يرى شبح الطفل رودى فى رؤيا خاطفة من صنع خياله العليل . وبعد إفاقته تستمر الحوادث ، ويرجع المؤلف الى ما انقطع ، كأن المسرحية نزوة عقلية اعترضت سياق الكتاب ، هكذا يبدو فى ظاهر الأمر ولكن الحقيقة أن المسرحية أسلوب فذ لم يكن غيره نصلح للتعبير عن فكر المؤلف وإرادته .

خاتمة

قال جويس فى خطابه الى أخيه المؤرخ ١٩٠٦/٩/٣٠ عن ليوبولد بلوم إن أصله « مستر هنتر » من أهل دبلن ، ولكنه ليس وحده الذى احتاج اليه جويس لتكوين تلك الشخصية العجيبة ، وقد أشرك معه جويس رجلين آخرين فتكون تلك الشخصية مكونة من :

(١) هنتر الايرلندى من دبلن

(٢) رجل إغريقى عرفه فى تريستا

(٣) رجل مجرى عاشره فى زوريخ

ويضاف الى هؤلاء ايتور شميتز الذى سيأتى ذكره .

ونصيب هنتر أن يمثل الايرلندى المتوسط الحال أثناء حياته ، وطوافه طوال اليوم بمدينة دبلن ، وخواطره وشهواته وأحاديثه وواقعاته مع أصدقائه وتسجيل تأملاته ومشاعره ، وهذه أمور بالطبع لا يقدر عليها إلا رجل ايرلندى صميم يعرف البلد وأهلها وتاريخها وماضيها وحاضرها وسياستها واجتماعها ، فصار هذا

الجزء من الكتاب نصيب بلوم البطل فى القصة .

وسرد سياحته الخطرة ومقابلاته مع بنات البحر وبنات الغاب وبنات الهوى ورجال الأعمال ورجال الصحافة ، وغوصه للأعماق فى كل طبقة وكل دائرة وكل بيئة وخوضه غمار البحر المظلم والتقاءه بالجبابرة العور والمردة من الإنس والجن ، وتملصه من المضايق وتغلبه على عواصف الحياة حتى صارت حياته فى تلك الفترة (١٦ يونيو ١٩٠٤) أسطورة وخرافة وتاريخاً للهائم على وجهه وسط المجتمع باحثاً عن هدوء البال ونعومة العيش فلا يجدهما ، ووسيلة للعثور على نفسه والتعرف بها ليتوجه توجيهاً صحيحاً وسط زوابع الزمن الفظيع الهاتك المهين .

ويبدو أن جويس كان معجباً بعولس بطل الأوديسة ، ذلك الإغريقى القديم الماكر الحاذق الذى خبل عقول أعدائه بخطط العقل التى غلبت خطط الحرب ، ولا مرجع لها إلا المنطق السليم وسعة الحيلة وحسن التدبير .

ولم تكن فكرة التشابه بين بطل كتابه وبين بطل الأوديسة بالأمر الذى يقبله جويس أو يقبل عليه ، ولكنها فكرة طرأت عليه أثناء نظره فى حالة نفسه أثناء إقامته فى رومة فكانت بذرة زرعها

العقل فنمت وازدهرت ، ولعلها فكرة كشفت لجويس عن خطته هو نفسه فى الحياة بسبب ضعفه حىال قوى خصومه والزمن .

وما أشبه تلك الفكرة التى غرست فى ذهن العبقرى بالحمل عند المرأة ! حمل أليم ، حضانة طويلة ، يتخللها طرح وإباء ورفض وامتعاض وانتظار مرير وصبر لحلول الروح فى الجنين ، يتلوها أوجاع المخاض وغمرات الوضع ، ثم يجرى الميلاد فيولد الطفل كاملا - هدية من الإله - ولكنه كمال لايمكن تحليله وتفسيره .

لقد حدث الحمل فى خريف سنة ١٩٠٦ ، واستمر خمس عشرة سنة ، وهى تلك الفترة قرأ جويس كتب الفلسفة والأدب القديم والحديث ، ومن الأدب الحديث مؤلفات « وايلد » و « جورج مور » (وهو ايرلندى) و « هويتمان » و « جيسنج » ولكن أفكار هذا الأخير فى الإشتراكية صدته عنه وحاول قراءة « آرثور موريسون » و «توماس هاردى» و «ثاكرى» ، ولم يفد شيئاً من القصة الإنجليزية.

وأعجب بأوروبا الحديثة من وضع « فيرورو » ، ومؤلفات موباسان ، ولكن عهد انوارد السابع خنقه وضيق أنفاسه ، لأنه كان تكلمة غير طبيعية لعهد فكتوريا الكئيب المحزن .

وكان في كل مطالعاته ودراساته يبحث عن المؤلف المدرك الفاهم تمام الفهم الواعي تمام الوعي بحيث يستطيع أن ينقل لذهن القارئ الشيء المرغوب نقله على الوجه الأكمل والذي يستوفى صفة الانفعالات والأحاسيس فيما وراء المرئيات التي تلابس موقفاً من المواقف الإنسانية أو العالمية والكونية .

وشهد أثناء إقامته في رومة المؤتمر الدولي الاشتراكي فلم يرقه وشعر بالبغض الشديد نحو كارل ماركس ، فأنساء الظن بنفسه، وكذا اتجه لقراءة كتب الفلاسفة والمصلحين نوى النزعة الاشتراكية ليصح نظره فقرأ موسست ومالاتستا وسترنر وياكونين وكروبوتكين وركلو وسبنسر ، ولم يقرأ من كتاب رأس المال لماركس إلا الجملة الأولى منه ثم تركه . ولكنه خرج من كل قراءاته مؤمناً بوحشية العالم المتحضر وقساوة المدنية المادية الحديثة وفضاعتها ومساوئها الظاهرة والخفية، واقتنع بظلام مستقبلها وسوء عاقبتها ، وأبغض السياسة لأنها متعبة ومضجرة وتدور حول مصالح المشتغلين بها ومنافع بعض الطبقات ، فهي لعبة خطيرة تعود بالمصلحة على محترفيها ومتقنيها الذين شبيههم بكبار المقامرين في مونتكارلو يظهرون قفاز الخمل ويخفون الخناجر .

واشتاق الى دبلين وأحب أن يقف على أخبارها فجذبت
المدينة، وشهد حركة « الشين فين » التي أسسها جريفيث ، فمال
جويس الى جانبهم من سنة ١٩٠٥ لأنه اعتقد أنها حركة منتجة وقد
صح تنبؤه واعتقاده فأتت هذه الحركة ثمرتها باستقلال ايرلندا فى
سنة ١٩٢١ ، وما كان جريفيث يخشى شيئاً سوى خشيته وقوف
الكنيسة فى سبيل حركته كما حاولت أن تقف فى وجه بارنل دفاعاً
عن الحكم القائم وعن ملاك الأراضى .

ولكن جويس لم ينضم الى القائلين بإحياء اللغة الايرلندية
القديمة وعلى رأسهم بيتس ، لأنه اعتقد أن إحياء لغة قديمة يعزل
ايرلندا عن العالم ، وكل هذه الخواطر التى ساورتها فى روما مع
بعده عن ايرلندا سببت له القلق والاضطراب ، فشعر بالضيق
والمنفى والضيق والحرى والكرب وألحت عليه الذكريات القديمة ،
فبدأ يشعر أنه يعيش فى فضاء كفراغ الفاكوم .

ولما مثلت مسرحية « الفتى اللعوب فى غرب أوروبا » فى دبلن
وفىها شبه مأساة - قتل الولد لوالده - تأثر لها وتأثرت لها كل
ايرلندا ، وأثارت مشاعرهم ، وغضب النظارة فى دبلن لمنظر القبلة
ولورود بعض ألقاظ ضد الدين ، فدفعه هذا الغضب المصطنع للدين

والفضيلة الى الإغراق فى مسرحيته « مدينة الظلام » نايت تاون .
وهذه المعركة الأدبية فى ايرلاندا بشأن حرية المسرح دفعته
الى الهجرة من روما ، فعاد الى تريستا وعاد الى مدارس برلتز
ليعلم الانجليزية للأفراد ، ولم يفتح أحداً بدخيلة نفسه ، لأن
المفاتيح تضعف الإرادة وتحل العزيمة ، كان يبغض الاشتغال
بالتعليم فى سبيل الرزق ولكن لم تكن له وسيلة أخرى ، ولم
يستصف أحداً غير الأديب « ايتور شميترز » الذى ألف كتابين
ونشرهما باسم مستعار أحدهما « ايتالو سفيغو » ، فأظهر جويس
نفسه لهذا الرجل وأقنعه بالعودة الى الأدب بعد اليأس ، وعثر
جويس فى طبيعة شميترز الهادئة اللاصقة بالحقائق البعيدة عن
العواطف على سند مادي مشهود لإكمال شخصية بلوم التى مازالت
فى سديم عقله صورة مبهمة غامضة ولكنه لم يكن بعد قد اختار
لبطل قصته اسم ليوبولد بلوم، ويمكن أن يُضم شميترز الى
الشخصيات الثلاث التى كونته ، وهم هنتر الايرلندى والرجل
اليونانى من أهل تريستا والمجرى الذى لقيه فى زوريخ .
وفى سنة ١٩٠٧ نشر جويس كتابه « موسيقى الحجرات » ،
ولكنه خاب ولم يجد سوقاً نافقة ، فأعانه ارثور سيموندى الكاتب

الشهير مؤرخ عهد الإحياء ، فانبرى سيموندىز لتقريظ الكتاب والدفاع عنه ، وكذلك أشاد بذكره صديقه القديم ورفيق صباه فى جامعة دبلين « توماس كيتل » ، فلما قرأ التقريظين رقص فى الشارع مع اثنين من سعاة البريد أثناء عاصفة مطر هوجاء فأصيب بحمى ولزم الفراش ، حمى الفرخ ؟ أم حمى المطر ؟ .

وفى أغسطس سنة ١٩٠٩ سافر فى رحلة قصيرة الى دبلن ومعه زوجته وولداه بعد غيبة خمس سنين وجمع مالاً كثيراً ليقوم مشروع دار صور متحركة ، ولكنه فشل واحتالوا عليه وفقد ماله فغادروا إيرلاندا ومعه أخته هيلانه ، وتراكم عليه الغم والغضب واصطلح الفقر وسوء الطالع فخاصم أخاه ستانسلوس لأهون الأسباب « وما أشبه هذا الأديب العظيم فى خيبته عندما طلب المال بالطرق المرنولة بسلفيه الصالحين بلزك وولتر سكوت ! » .

وفى سنة ١٩١١ استأذن الملك جورج الخامس فى ذكر والده ادوارد السابع باسمه وسماته وصفاته فى قصة أهل دبلن ، فأجابه الملك بلسان كاتم أسراراه أن الملك لا يملك أن يبدي رأيه فى هذه المسألة بحكم الدستور ، فغضب من جديد واعتقد أنه فريسة مؤامرة كبرى من أعداء الحق والحرية ، وظن أن أبناء وطنه تواطؤا عليه

حتى أفقدوه مائة وخمسين ألف فرنك فى مشروع السينما ، فعاد ثانية الى دبلن بكل أفراد أسرته ، وبينما كان يجوس خلال القبور للموعظة أو لزيارة قبر أمه ، وجد قبراً عليه اسم J. Joyce وهو اسمه ولقبه ، وأعاد الكرة لنشر كتابه قصة أهل دبلن التى طالت واستمر من سنة ١٩٠٢ الى سنة ١٩١١ ، وحجة الناشرين أنهم ينشرون مخزيات الناس ولا يطبعون المعاييب للقراء ، فزاد غيظه من القوم ، وكانت سنة ١٩١٣ من أسوأ الأعوام .

وفى سنة ١٩١٤ انتهى من صورة الفنان الشاب كما أسلفنا وبدأ كتاب عولس ، وبعد نشر هذا الكتاب الأول مد إزرا باوند يده لمعونته فى لندن فى غيبته ، وهو صديق عرفه فى باريس ، بدأ جويس يكتب عولس ويخرجه من حيز الفكر الى حيز العمل والتدوين، وكان فى تلك الفترة يعتقد أن كتب اليونان الأقدمين أعظم من هملت وبون كيشوت ودانتى وجوته ، وجذبه التصوف ، وقد خيب وطنه أماله فيه فاعتبر أوروبا والداً له « لا ليوبولد بلوم كما زعم الجهال » ، وإن كان هناك شبه بين كتابه وبين الكتاب اليونانى القديم ، فهو الأخلق بأن يكون عولس نفسه ، لا تليماك ابنه لأنه هو الذى كابد الأسفار وتحمل مشقات النفى والهجرة ، وقد صحبته تلك

الفكرة من سنة ١٩٠٦ ولم يبدأ بتنفيذها إلا سنة ١٩١٤ ، فإن كان هو عولس الحديث فدلبن وطنه هي محيط البحر الأبيض الذي تاه فيه عولس القديم .

وخطة عولس أن يكون كتاباً كونياً يطوى بين دفتيه كل شيء في العالم ، أى أن يجمع الحياة في كتاب ، كتاب يفسر الحياة في العصر الحديث ، ولا سيما بعد أن رأى عمق الهوة التي تفصله عن قومه الذين نشأ فيهم ، هوة في التفكير والشعور ، وقد يكون الرجال الذين أثروا في ذهنه حقاً بعد الأقدمين ، إيبسن النرويجي وفيريرو الإيطالي ، وكلاهما يبغض العصر الحديث ويمقته ويطلب تحرير العقول والعواطف .

ومنذ أعلنت الحرب صار جويس أسير حرب في تريستا ، ولكنه تمكن من الإفراج عن نفسه بكلمة الشرف ليذهب الى زوريخ ، فسافر إليها في أول صيف ١٩١٥ ، ولكن زوريخ التي أعجب بها وأحبها في أول هجرته أبغضها عند عودته إليها ، فقد كانت تعج بالغرباء واللاجئين والجواسيس والمشبوهين من كل نولة ، وأصبحت موطناً دولياً للعناصر المريية من كل قطر ، وكان قد قطع شوطاً في القسم الأول من كتابه في تريستا ، فلما أراد دخول البلد اعترضه

رجال الجمارك وظنوا كتابه نوعاً جديداً من الشفرة السرية لغموضه
وغرابة أسلوبه وجهلهم بالأدب والفن ولا سيما الجديد الطريف ،
فواصل عمله فى كتابه فى زوريخ .

وكانت طريقة عمله أن يكتب ما يعن له على قصاصات من
الورق ، فى كل مكان وزمان من النهار أو الليل ، ويودع المكتوب
جيوب ثيابه ، وكان يعمل على طريقة الشعراء ، فلا يضع على الورق
إلا ما تمت صياغته فى ذهنه ، لم يكتب كالناثر بل كالناظم ، فلم
يدون إلا ما فرغ من صبه فى القالب الملائم ، وكان بحثه غير
مقصود على الألفاظ أو جرسها بقدر اهتمامه بواقعة أو كلمة أو
سمات خلقية يضعها فى موضعها على لسان أشخاصه أو فى كلام
عنهم ، ولا يتخلى أبداً عن أنوات عمله فعاش للكتاب وجعله طعامه
وشرابه وشغله وتفكيره ، وأهمل كل ما عداه ولم يشتغل بشيء
غيره، ولم يكن من السهل أن يكثر له أحد وهو فى الطور الأول من
أطوار التنفيذ .

وقد جمعت مصادقات الأسفار ببعض الكتاب فى زوريخ
ومنهم بلاييترو Bleibtru صاحب نظرية نوق رتلند « أى الذى قال
إن هذا النوق هو مؤلف المسرحيات المنسوبة الى شكسبير » ،

وشيكرليه الكاتب الألباني ، وستيفن زفايج الكاتب اليهودي المنتحر
فى أمريكا الجنوبية أثناء الحرب العالمية الثانية وهو على قمة
الشهرة ، ورومان رولاند المنفى من وطنه وغيرهم ممن يبغضون
الحرب التى لم تنته الى نتيجة حاسمة ولم تعد على العالم بخير
لعجز القادة عن الإدراك والمنطق ومجافاة روح العدل الإنسانى
والحقوق والحريات التى كانوا يلوحون بها وفشل الهيئات النولية
التى عينوها للاحتكام .

واتصل به هـ . ج . ويلز وامتدح كتابه « صورة الفنان » ،
والتقى بأغبياء وأدعياء ومتهوسين ودجالين ومحتالين وهواة تمثيل
وهواة تأليف ومحترفين فى اقتناص الأموال واستغلال المواهب ،
وأراد فريق منهم أن يستغل مواهبه ، وكان الجنس الرقيق أميل إليه
والى معونته لجاذبيته فى شخصه .

ولم يخلص جويس نهائياً من هم الارتزاق بمهنة التعليم
والتدريس إلا فى سنة ١٩١٧ ، أى بعد أن مارسها وعول عليها فى
قوته وقوت أولاده ثلاث عشرة سنة، ولم يكن حب النساء إياه
مقصوراً على اللواتى عرفنه فى إيرلاندا وأوريا ، بل امتدت تلك
الجاذبية الى ما وراء المحيط ، وتطوعت سيدات وأبكار غنيات

وأديبات لمعونته فى نشر كتابه ومدته بالمال ، وحاول أن يكون فرقة تمثيلية فى زوريخ من الهواة والهاويات ، فاحتكت به السلطة القنصلية من رجال الانجليز ، فأبغض منهم كار ورمبولد ومثل بهما فى كتابه وجعل منهما شرطين غبيين وأحدهما جلاباً وحلاقاً .

وفى سنة ١٩٢٠ رحل جويس من زوريخ الى باريس وجميع أسرته فاستقبله إزرا باوند استقبالا حافلاً بالتكريم ، وكان قسم من كتابه قد نشر فى أمريكا ، ولم يكن الكتاب كله قد تم لأنه أنجزه سنة ١٩٢١ ، ولكن ما نشر منه فى أمريكا أذاع صيته ونشر شهرته ورفع ذكره وألهج الأكسنة باسمه وصار أسطورة أدبية فى الأدب العالمى وهو ما يزال فى المهد ، صار كتاب جويس أسطورة وتقليداً ومنهجاً ونموذجاً ولفزاً .

كان جويس طويلاً نحيفاً أبيض الشعر وهو فى الأربعين من عمره وقوراً ، يضع على عينيه نظارة ، محباً للمرح وعطوفاً على أسرته وصديقاً وانياً ، وقد قاضاه فى أمريكا جورج سميث رئيس جمعية محاربة الرذيلة ، بسبب الأجزاء التى نشرت من كتابه فى الولايات المتحدة فى « المجلة الصغيرة » . وفى سنة ١٩٢١ حكم على صاحبتى المجلة بالغرامة وحكم بمصادرة الكتاب ، ومن هنا

بدأت مأساة المصادرة والإحراق فى أمريكا وبريطانيا ، ولم يبال جويس وكان أصحابه يصفونه فى هذه الفترة بأنه مزيج عجيب من وقار مؤدب ومرح خيالى ، أى أنه كان وقوراً طيب العشرة وطروباً مثالياً .

ولما تم الكتاب قامت بطبعه فى ديجو (فرنسا) سنة ١٩٢٢ الأنسة بيتش "Beach" ، وأهدت الى جويس النسخة المطبوعة الأولى يوم ٢ فبراير سنة ١٩٢٢ وهو عيد ميلاده .

ولم يبق الكثير من سرد أخباره ، فقد عانى ما عانى الى سنة ١٩٣٣ ، عندما أصدر القاضى الأمريكى حكمه بإطلاق الكتاب وإباحة طبعه ونشره ورفع الحجر عنه وحق مؤلفه فى استثماره .

وتوفى جويس سنة ١٩٤١ فى الستين من عمره بعد أن علا نجمه وتآلق مجده، وأسدى ما أسدى الى الحق والحرية والعدل والأدب والفن واللغة ، وإن له عند الله يداً لأنه أتم رسالته ولم يبدد مواهبه ولم يضيع ميراثه ، ورضى بالذل والفقر والأسر لتحقيق غايته التى أرادها الله له ، فدخل فى عداد عباده الراضين المراعين حق الله فى عبقرية الكائن الإنسانى ، ولم يثر إلا على مظالم دهره، ولم يفقد ثقته بالله ، وفقد بصره فى سبيل عمله ولم يعرف الخنا

ولا الفساد لأنه اعتصم بالزواج فى فجر شبابه ، ولم يخن أمانة ،
ولم يربح مالاً حراماً ، ولم يسع الى شهرة باطلة، ولم يضرب لأحد
مثلاً سيئاً ، وعرف الخير وأحبه ، وعرف الشر فأبغضه ، وأقام
للأخلاق والحرية صرحاً وأقام البيان ، وقد آتاه الله الفصاحة
والبلاغة وكنوز اللغة فكان أميناً عليها ، وير بوعده عندما قال إنه
سيخلق فناً جديداً وعندما قال إنه سيؤلف كتاباً يشغل الدنيا .

وكان باراً بأهله ويأولاده وبوطنه ، وبالجمله كان جيمس
جويس علماً من أعلام عهد الإحياء ، عاش فى معظم عمره غربياً
حقيقة ومجازاً ، ومجهولاً من معاصريه الذين لم يعرفوا قدره إلا فى
الندرى ، وهذا يزيد فى نظر التاريخ رفعة وقدرأ .

محمد لطفى جمعة